تــاريخ العلــم عند المسلمين

د.محمد السيد علي بلاسي*

***لقد** فجـر الإسـلام تاريخـاً نسب إليه في العصر الوسيط، واهتم المؤرخون بتتبع حركات الفتوح الإسلامية التي وصلت إلى حدود الهند شرقاً وإلى جنوب فرنسا غرباً.. على أن التاريخ الإسلامي ليس فتحاً عسكرياً فحسب بل هو إلى جانب ذلك حضارة متسعة باتساع الفتوح فيما بين الشرق والغرب[1].*

فالإسلام الذي نادى بالتوحيد استطاع أن يشعر ذلك العالم المشتت الأطراف بوحدته، وأن يجعل هـذه البيـئة المترامية الأطراف تشعر بأنها تكوّن حضارة واحدة يربطها سمط واحد؛ وعن الإسلام نشأت الحضارة العربية؛ ومن الحضارة العربية تولد العلم العربي الذي ساهم في تكوينه مفكرون من مخـتلف القومـيات والأديـان: سـريانيون وفرس وصابئة ونساطرة ويونانيون وأقباط وعبرانيون وأتراك. ولكن بلسان عربي وفي ظل الدين الحنيف..[2]

ومن هذا المزيج الإنساني كان الفكر الإسلامي إنسانياً أكثر منه إسلامياً!

والحقـيقة أن نسبة هذا الفكر للإسلام نسبة تفتقر للدقة العلمية؛ فالإسلام منهج إلهي محدد بكتاب سـماوي معجـز. ومطلوب من المسلمين جميعاً أن يسيروا في حياتهم الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسـية وفق ذلك التوجيه القرآني، إلا أن المفروض شيء والواقع شيء آخر. وكما حدث بعض الانحـراف عـن المـنهج الإسـلامي السياسي، بحيث وقعت حروب بين المسلمين، فقد كان الفكر الإسلامي مرتبطاً بتراثهم القومي قبل الفتح، أكثر منه ارتباطاً بالقرآن والسنة.

---

* أديب وكاتب إسلامي من جمهورية مصر العربية.

(1) تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية (كتاب مقرر على طلاب السنة النهائية لكلية اللغة العربية- جامعة الأزهر)، (المقدمة: ص أ)، د.أحمد صبحي منصور، (بدون ذكر الطباعة والتاريخ).

(2) مسـيرة الفكر العلمي عبر التاريخ، د.أحمد سعيد الدمرداش، (دراسة منشورة في مجلة "المنهل" السعودية)، (الحلقة الأولى) العدد 450، جمادى الأولى سنة 1407هـ، ص 123.

وساعد على هذه السقطة أن المسلمين نظروا للقرآن كمعجزة موجهة للعرب فقط، ونسوا أن القرآن معجز للإنس والجن، في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وأن نهايات العلوم قد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم، كما أن منهجه العلمي التجريبي لم ترق إلى نظيره أي اجتهادات إنسانية؛ ولا أدل على ذلك من أن عصرنا العلمي الراهن لا يستطيع أن يخالف ما جاء في القرآن الكريم من حقائق علمية..! ولو اتخذ المفكرون الأوائل من القرآن الكريم رائداً لوفروا على أنفسهم وعلى الإنسانية قروناً من البحث والسير على خطوات من سبقهم من اليونان والهنود..![1]

إسلامنا.. دين العلم والمعرفة:

لقد كان أول أثر من آثار القرآن في الفكر الإنساني اهتمامه الواسع بالعلم. قال الله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ (العلق: 1)، فهذا هو أول خطاب إلهي إلى النبي- ﷺ-، وفيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم[2]؛ لأنه شعار دين الإسلام؛ ذلك أن العلم أساس التقدم والتعاون، وتبادل الخبرات والمنفعة، وقد كانت عناية القرآن بالعلم تفوق حد الوصف!

ومن يتأمل القرآن الكريم ويفهم آياته، يجده يدعو إلى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون وأحداث الماضي. ولقد اشتمل القرآن على ستة آلاف ومائتين وست وثلاثين آية... منها سبعمائة وخمسون آية كونية وعلمية.. احتوت أصولاً وحقائق تتصل بعلوم الفلك والطبيعة وما وراء الطبيعة والأحياء والنبات والحيوان وطبقات الأرض، والأجنة والوراثة والصحة الوقائية والتعدين والصناعة والتجارة والمال والاقتصاد... إلى غير ذلك من أمور الحياة.. واحتوت باقي الآيات على الأصول والأحكام في المعاملات وعلاقات الأمم والشعوب، في السلم والحرب وفي سياسة الحكم وإقامة العدل والعدالة الاجتماعية وكل ما يتصل ببناء المجتمع.. ذلك أن القرآن من العمق والاتساع والعموم والشمول.. بما يقبل تفهم البشر له.. أياً كان مبلغهم من العلم فهو يفي بحاجاتهم في كل عصر، ويتجاوب مع أهل البداوة في يسر، ويبهر في عمقه أهل الحضارة الذين صعدوا في سلم الرقيّ وبرعوا في فنون العلم والمعرفة..![3]

ولقد حث الإسلام المسلمين على طلب العلم، والتفقه في الدين، والبحث الدقيق في كل مجالاته وفنونه وفروعه، وأن يتحملوا المشاق في سبيل تحصيله وتعلمه، وأن يبذلوا كل طاقاتهم وقدراتهم في طلب المزيد منه.

الحض على العلم:

لقد كان النبي- ﷺ- يشجع طلاب العلم، ويرحب بهم؛ فرحاً بهم، وبما يراه- ﷺ- من حفاوة الملائكة بهم وحبهم لهم. ويعلن ذلك في صراحة حينما أتاه صفوان بن علي المرادي- رضي الله

---

[1] *تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية، د.أحمد صبحي منصور، (المقدمة: ص أ، ب- بتصرف).*

[2] *صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، من أعلام المفسرين (20)، ص 581، ط. دار الرشيد بسورية.*

[3] *دعوة الإسلام إلى العلم، د.أحمد عبد الرحيم السايح ، مجلة "المنهل" العدد 453، شعبان 1407هـ، ص 18-19 بتصرف.*

عنه- قال: "أتيت النبي- ﷺ- وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله جئت أطلب العلم. فقال: مرحباً بطالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب".

(رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد).

ويؤكد رسول الله- ﷺ- على المسلمين طلب العلم بأسلوب آخر من أساليب الترغيب المحبب الذي اختص به رسول الله- ﷺ- وهو لا يقول إلا حقاً، فيقول لأبي ذر الغفاري- رضي الله عنه-: [يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي ألف ركعة] (رواه ابن ماجة بإسناد حسن)[1].

لذا فإن من أعظم الواجبات على المسلمين أن يكلفوا جماعة منهم للتفقه في الدين، قال تعالى: ﴿... فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ (سورة التوبة: من الآية *122*).

يقول المراغي: وفي الآية إشارة إلى وجوب التفقه في الدين، والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذي تصلح به حالهم، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرفها. والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامي المراتب ما لا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن الدين والملة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع واجباً عينياً على كل شخص[2].

وإذا كان نشر العلم من أهم الفروض الإسلامية، فإن من كتم علماً، أوجب الله سبحانه وتعالى بيانه للناس، فإنه يستحق الطرد من رحمة الله، ويلجم يوم القيامة بلجام من نار. ففي الأثر: عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ-: [من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار]. (رواه أبو داود والترمذي وغيرهما).

أرأيت إلى هذه الدعوة الصريحة، الملحة لإزالة "الأمية" من المسلمين، بواسطة المتعلمين حيال إخوانهم في الدين، فما تجد ديناً دعا إلى العلم والتعلم بكل الأساليب كما دعا الإسلام أبناءه ومريديه؛ ذلك لأن العلم هو سبيل الخير والرشاد والسعادة في الدنيا والآخرة..[3]

مما أفاد الإسلام به العلم:

لم يكن الإسلام ديناً بالمعنى التقليدي للدين، وإنما هو نظام جديد لا يكتفي بمعالجة القضايا التي عالجتها الأديان من قبله، من تنظيم العلاقة بين الفرد وربه فحسب، أو تنظيم العلاقة بين الإنسان

---

(1) لمزيد من التفصيل راجع: مجلة "الهداية" البحرانية، العدد *113*، رجب سنة *1407*هـ، ص *38-41*، مقال: كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟ لطفي نصر.

(2) تفسير المراغي: جـ*11*، ص *48*.

(3) كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟ لطفي نصر، مجلة "الهداية"، العدد *113*، رجب سنة *1407*هـ ص *41* وما بعدها.

وأخيه في داخل مجموعة صغيرة. وإنما نراه يلجأ إلى العقل ليحرك به الوعي الذاتي للفرد، ويدفع به إلى الاستقلال في الرأي[1]؛ لذا نجد أن الإسلام قد سلك في دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته مسلكا يثير العقل، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم من ظواهر.

قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ (الطارق: 5).

وقال: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء...﴾ (الأعراف من الآية 185).

وقال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ (يس: 40).

وقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ (آل عمران: 190).

هذا الضرب من الآيات الكريمة فيه بعث العقل على النظر في الكون؛ وقد كان لذلك أثره في نمو الحياة العقلية[2]؛ حيث إن مجال استعمال العقل في الإسلام فسيح وعميق، عمق الآيات التي خلقها الله في الأرض وفي السماء، ودعا الإنسان إلى التفكير فيها...![3]

مواكبة التعليم للدعوة الإسلامية:

لقد بدأت الحركة التعليمية مع بداية الدعوة الإسلامية بصورة متواضعة، تتفق وبداية الدعوة في مكة المكرمة، حيث كان الرسول- ﷺ- يجتمع بأصحابه والمؤمنين بدعوته في دار الأرقم بن أبي الأرقم أو في بيته ليعلمهم ويرشدهم ويدعم إيمانهم بالله وبمستقبل الدعوة. وحينما انتقل الرسول- ﷺ - إلى مسجده الشريف في المدينة المنورة، وأخذت دعوته- ﷺ- في الذيوع والانتشار؛ شهد مسجد قباء ثم المسجد النبوي الشريف- بعد أن بناه ﷺ- كما شهدت مرابع هذا البلد الطيب، دوحة العلم والمعرفة وهي تنمو بسرعة فتمتد أغصانها الخضراء الظليلة في كل اتجاه وهي محملة بأشهى الثمار.

ولحق الرسول- ﷺ- بالرفيق الأعلى بعد أن ضرب أروع الأمثال وأنبل الأهداف، بكلماته الحية، وأعماله الخالدة لكل الأجيال القادمة.

وتوالت الأيام وتتابعت السنون، ومراكز الثقافة والمعرفة في المجتمعات الإسلامية تتعدد منابعها وتتنوع روافدها، فانتشرت حلقات التدريس في المساجد والجوامع، وفي منازل ودور الأئمة

(1) مسيرة الفكر العلمي العربي عبر التاريخ، د.أحمد الدمرداش ، مجلة "المنهل" العدد 450، جمادى الأولى سنة 1407هـ (الحلقة الأولى) ص 123، 124- بتصرف.

(2) الإسلام دين العلم والمعرفة، عبد الرحمن البهلول ، مجلة "منبر الإسلام" القاهرية، العدد 27، السنة 45، رجب سنة 1407هـ، ص 72، 73- بتصرف-.

(3) تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية، د.أحمد صبحي، ص 8- بتصرف يسير-.

والعلماء. وكان المسجد النبوي أول جامعة إسلامية يلتقي المئات والألوف من الطلاب فيها حول حلقات التدريس وكان يتصدر كل حلقة منها أحد كبار العلماء الذين عرفوا باطلاعهم الواسع وثقافتهم العميقة وقدرتهم على اجتذاب طلاب العلم والتأثير فيهم. وهي الطريقة التي كانت متبعة في كافة أنحاء العالم الإسلامي إلى عهد قريب. وقد ساعدت هذه الحلقات مع امتداد الأيام، سواء ما كان منها في المساجد أو في دور العلماء، الكثيرين من الأميين الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة، وأرباب المهن والصناعات، على أن يصبحوا مع مرور الزمن على درجة كبيرة من العلم والمعرفة. ولقد أصبح هؤلاء العصاميون من طلبة العلم يملؤون المجالس التي يحضرونها علماً وأدباً وثقافة واسعة ومتعددة الجوانب بطريقة تدعو إلى الإعجاب والإكبار..![1]

مسيرة العلم عند المسلمين عبر التاريخ:

لقد ظلت العناية بالعلم والعلماء مستمرة منذ فجر الدعوة الإسلامية حتى أواخر عصر الدولة الأموية. فقد كان خلفاء هذه الدولة يعدّون أنفسهم حماة للعلم ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزاً يشع منه الثقافة والعرفان. لقد بدأت بعهد معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول، ثم خالد بن يزيد بن معاوية المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند العرب، ثم ازدهرت في عهد عبد الملك بن مروان والوليد ابن عبد الملك.

وفي العصر العباسي نشطت حركة الترجمة نشاطاً واسعاً، منذ عهد أبي جعفر المنصور ثم الرشيد والمأمون. فقد راسل المأمون ملك الروم، وأرسل إليه جماعة من العلماء للحصول على الكتب النادرة من علوم الأوائل. وجُمعت في عاصمة الخلافة العباسية أهم كتب الفلاسفة والعلماء من الأغارقة في مختلف الفروع من طب ورياضيات وفلك... إضافة إلى طائفة من الكتب العلمية والحكمية الفارسية والهندية والسريانية... فتسنى لطلاب المعرفة والعلم في العالم العربي أن يهضموا في سنوات قليلة ما أنفق اليونان وسواهم القرون في إنشائه...

وقد كانت الكتب تهدى إلى الخلفاء على سبيل الاسترضاء. ولكن هارون الرشيد، لما تم فتح عمورية وأنقرة في عهده أمر أن يحمل إلى بغداد كل ما وجد فيهما من المخطوطات، واقتدى به ابنه المأمون.

وكان العلماء- آنئذ- يلحفون في طلب المخطوطات بلا هوادة، وقد حدثنا حنين ابن اسحاق عن مخطوط عرف باسم (في البرهان) بقوله: إنني بحثت عنه بحثاً دقيقاً، وجبت في طلبه أرجاء العراق وفلسطين ومصر... إلى أن وصلت إلى الاسكندرية، لكني لم أظفر إلا بما يقرب من نصفه في دمشق.

وفي غضون حكم المأمون (813-833م) وصلت الجهود الثقافية الجديدة إلى قمتها؛ فلقد كان المأمون من مفاخر الدولة العباسية علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً، ولقد وجه عنايته للعلم وأكرم العلماء

---

[1] *الإسلام دين العلم والمعرفة، عبد الرحمن البهلول، مجلة "منبر الإسلام" عدد رجب سنة 1407هـ، ص 75.*

وأعلى مجالسهم، وانصرفت همته أيما انصراف إلى نقل العلوم والصناعات من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية؛ حيث عد ذلك من آكد أعماله وأنبل أغراضه؛ رغبة في رفع شأن أمته وإعزاز جانبها. كما أنشأ الخليفة المأمون في بغداد سنة 830م معهداً رسمياً للترجمة مجهزاً بمكتبة أطلق عليه اسم "بيت الحكمة"، فكان هذا المعهد- من وجوه كثيرة- أعظم المعاهد الثقافية التي نشأت بعد مدرسة الاسكندرية، التي تأسست في القرن الثالث قبل الميلاد، في زمن الاسكندر المقدوني.[1]

وفي عهد المأمون نبغ علماء كثيرون وحكماء وبلغاء وكتّاب، ممن كانوا فخر الزمان وحلية الدهر، وعلى كتبهم ومؤلفاتهم- في مختلف العلوم والفنون- شيد الأوربيون حضارتهم الماثلة أمامنا الآن..[2]

وفي حدود سنة 856م جدد المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد.

وقد استفادت مجالس العلم من التطور العلمي والترجمة اللذين كانا طابع ذلك العصر ولما ضعفت الخلافة العباسية في بغداد، انتقل مركز الثقل إلى الممالك والدويلات الشبيهة بالمستقلة، فالديلم كانت لهم مجالس علم ثم السلاجقة ثم الغزنويون والساسانيون.

ومن هذه المجالس مجلس الوزير ابن الفرات أبي الفضل جعفر، في عشرينات القرن الرابع الهجري.. ومجلس أبي عبد الله الحسين بن سعدان، في سبعينات القرن نفسه، وكان مجلسه حافلاً بجلة العلماء والأدباء، وكان يباهي في مجلسه بأمثال أبي حيان وابن مسكويه وأبي الوفاء.. ثم مجلس السلاجقة وكان يتصدره الوزير الطغرائي العالم الشاعر.. ومجلس رابع كان يزدان بأمثال البيروني والفردوسي.

وقد بدأت هذه "المحافل" أو الجمعيات العلمية في القصور المصرية منذ ظهور الدولة الطولونية وكانت دار الحكمة قد أنشئت بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله عام 395هـ على غرار بيت الحكمة في بغداد. وقد حملت إليها آلاف الكتب من خزائن القصور ومن خزائن الحاكم ممّا لم ير مثلها مجتمعة عند أحد الملوك، وأجريت الأرزاق على من يشرف عليها من العلماء والفقهاء والكتّاب.

ومن أشهر العلماء في العصر الفاطمي الطبيب ابن بطلان، وعالم البصريات ابن الهيثم: وقد استدعى الحاكم بأمر الله الأول من سورية والآخر من العراق.

وفي تاريخ العلم عند المسلمين ستة أعلام يوضعون على القمة في قيادة الحركة العلمية وريادتها هم: المأمون، ونظام الملك، ونور الدين زنكي، والحاكم بأمر الله، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان أولغ بيك في سمرقند.

لقد ارتبطت هذه الأسماء ارتباطاً وثيقاً بالعلم والتعليم؛ فالأول أنشأ بيت الحكمة، والثاني أسس المدرسة النظامية، والثالث كان راعياً للعلوم في سورية، والرابع أنشأ دار الحكمة في القاهرة وجلب

[1] مسيرة الفكر العلمي، د.الدمرداش ، مجلة "المنهل" عدد رجب 1407هـ (الحلقة الثالثة) ص 138، 139- بتصرف-.
[2] الإسلام دين العلم والمعرفة، عبد الرحمن البهلول، مجلة "منبر الإسلام" عدد رجب سنة 1407هـ، ص 75- بتصرف-.

العلماء والمخطوطات لها من الأرجاء كافة، وأنشأ مرصد المقطم بإشراف ابن يونس الفلكي، والخامس حمى التراث العلمي من غوغاء التتار، والسادس هو مؤسس النهضة العلمية في الدولة التيمورية، ونبغ في عصره جمشيد غياث الدين الكاشي وقاضي زاده، وشرع في تأسيس مرصد المراغة.

منارات العلم في الأندلس:

وفي الأندلس أصبحت قرطبة في ظل الأمير عبد الرحمن الثاني (*821-852*م) مركزاً هاماً للرخاء الاقتصادي والنشاط الفكري. وتبوأت مقاماً عالمياً في عهد الخليفة الأول عبد الرحمن الثالث (*912-961*م) حامي العلوم والآداب. وبفضل تشجيع مطرد النمو أيضاً تزايدت هذه النهضة في حكم ابنه وخليفته الحكم الثاني (*961-976*م) الذي أبى إلا أن يكون هو نفسه من العلماء، فأرسل وكلاء عنه إلى جميع أصقاع العالم الإسلامي لشراء الكتب واستنساخها، ووفق في جمع مكتبة غاية في الثراء تقدر محتوياتها بأربعمائة ألف كتاب، كما كانت فهارس كتبها تملأ أربعة وأربعين جزءاً.. وكان يساعد الخليفة في هذا النشاط العلمي وزيره محمد بن أبي عامر المتوفى عام *1002*م، وأخيراً كان حكم الخليفة هشام (*976-1009*م) الذي ازدهرت العلوم على يديه أيضاً.[1]

وحمل الأزهر الشعلة:

ولكن لمزيد من الأسف لم يظل الحال على ما هو عليه؛ فلقد انقسم المسلمون على أنفسهم في الأندلس. كما دهم التتار بغداد- حاضرة العلوم- وأحرقوا ما فيها من كتب، وألقوها في دجلة حتى غدت جسراً يعبرون عليه. كما قتلوا العلماء، وعطلوا المدارس، وأصبح المسلمون محكومين بقوم من غير دينهم، كل هذا كوّن غيوماً في سماء المعرفة عند المسلمين. ولكن الله الذي تكفل بحفظ دينه والإبقاء على قرآنه هيأ الأزهر ليكون المكان الذي يشع منه نور العلم والمعرفة. فلقد لجأ إليه العلماء الفارون من وجه التتار، كما لجأ إليه العلماء المهاجرون من الأندلس، فوجدوا فيه محطاً لرحالهم، ومكاناً صالحاً لأداء رسالتهم.

وقد حبب الله إلى سلاطين المماليك أن يميلوا إلى الغلم، وأن يقربوا العلماء ويغدقوا عليهم. فتخرج في الأزهر علماء أجلاء لا نزال ننعم بما خلفوه من دراسات واسعة شاملة في شتى ميادين المعرفة: كالسيوطي، وابن منظور، وابن هشام، والسبكي، وابن حجر...

لقد بقي الأزهر منارة هادية لسبيل العلم، حين أطبقت الظلمات في العصر العثماني على العالم العربي. وفي الأبيات التالية يشير الشاعر أحمد شوقي إلى هذه الفترة من تاريخ إنشاء الأزهر حين قال فيه:

---

[1] مسيرة الفكر العلمي، د.الدمرداش، مجلة "المنهل" العدد *452*- رجب سنة *1407*هـ (الحلقة الثالثة) ص *139-141*- بتصرف-.

ظلمات لا ترى في جنحها غير هذا الأزهر السمح شهابا
قسماً لولاه لم يبق بها رجل يقرأ أو يدري الكتابا
حفظ الدين ملياً ومضى ينقذ الدنيا فلم يملك ذهابا..![(1)]

وثمة أسباب أخرى لضعف المسلمين بعد الازدهار العلمي الذي لم تعرف الدنيا له مثيلاً في وقتها. ونحن نرى أن من أعظم هذه الأسباب: أن المسلمين لم يستفيدوا من مواقفهم، ولم يعتبروا من ماضيهم، فالأمور عندهم أصبحت وقتية تنتهي بانتهاء وقوعها، دون عبرة واستفادة..!

ولو قلبنا صفحات ماضينا التليد، لوجدنا أن المسلمين الأوائل كانوا يطبقون مبدأ الاستفادة من الهزيمة خير تطبيق.. ففي غزوة "حنين"- مثلاً- على الرغم من كثرة الغنائم التي تركها العدو عند انسحابه فإن المسلمين لم ينشغلوا بالاستيلاء عليها، بل أوغلوا في تعقبه، مستفيدين في ذلك من درس غزوة "أحد".. لذلك وجدناهم في سنين قلائل يفتحون العالم وينشرون الإسلام في ربوعه، ويقيمون حضارة فريدة في وقتها دانت لها جميع الحضارات..

وحينما ترك المسلمون مبدأ الاستفادة من الفرص، ماتت فيهم روح الطموح، وسلّموا راية حضارتهم إلى أعدائهم..

فالمسلمون، أثناء الحروب الصليبية، كانوا يتمتعون بحضارة منقطعة النظير ومتكاملة الجوانب. امتزج فيها تراث اليونان والرومان والمصريين بأعظم تقدم أضافه الإسلام إلى هذه الحضارات. كانت أوربا في ذلك الحين تحيا في ظلام الجهل، وتعيش في محيط التخلف- إلا أن المسلمين بعد أن لاقوا الصليبيين في حروبهم وانتصروا عليهم، ساد بينهم الخمول والكسل، وفترت همتهم وعزائمهم، ولم يستفيدوا من موقفهم مع أعدائهم.

أما في الغرب فقد كان الأثر عكسياً، فقد عرف الأوربيون كيف يعبرون من الهزيمة إلى النصر، ومن الجهل إلى العلم، ومن التأخر إلى التقدم، ومن حياة الدَّعة والخمول والكسل إلى حياة الجد والعمل، ومن حالة اليأس إلى حالة الطموح، فالتهموا الحضارة الإسلامية كالجائع المحروم من الطعام..! وبذلك أقاموا حضارة من لا شيء..!! ذلك لأنهم عرفوا الاستفادة ولو في أحلك الظروف!![(2)]

الأصل والنقل:

الأصالة صفة مشتركة بين جميع الحضارات، فكل حضارة أبدعت ونقلت، وكانت لها سمة

---

(1) التاريخ الأدبي للعصرين العثماني والحديث، د.علي محمد حسن العماري، ص 28-31، ط. الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية سنة 1399هـ، فراجعه تجد تفصيلاً.

(2) لا بد أن نستفيد؟!، د.محمد السيد علي بلاسي، مجلة "البريد الإسلامي" (وهي مجلة فصلية تصدر عن دار تبليغ الإسلام بمصر) العدد 7-9 سنة 1404، ص 13، 14.

تميزها بين الحضارات العالمية. ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل أو خلت من السمة التي تميزها عن الحضارات الأخرى.

إلا أن البدعة الحديثة التي نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوربيين إلى القول باتصاف الحضارة الإسلامية السامية بالنقل دون الإبداع. وحببت إليهم أن يميزوا عليها حضارات الأمم الآرية- ولو كانت شرقية- بملكة الإبداع والتفكير الحر، لا سيما في المباحث النظرية التي يراد بها العلم للعلم، ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة. لأن تمييز الشرقيين الآريين ينتهي إلى تمييز العنصر الأوربي في أصوله الأولى، وهي الدعوى التي يسوّغ بها الغرب سيادته على أمم العالم!

وقال منهم قائلون: إن حضارة العرب، التي ظهرت بعد الإسلام، كانت حضارة منقولة على أيدي الأعاجم الذين دخلوا الإسلام![1]

وأول ما يوجب التشكيك في هذه الدعوى أن نسأل: أين هي الحضارة التي أبدعت ولم تنقل؟ وأين هي الحضارة التي يقال عن جميع علمائها إنهم من عنصر محض خالص ينتمون إليه ولم يمتزج بالعناصر الأخرى؟.

والحقيقة التي لا يشوبها شك: أن كل حضارة مبدعة ناقلة، والحضارة الإسلامية ليست بدعاً في هذا المجال، وإنما اطلعت على فكر السابقين من يونان وإغريق وهنود وفرس وغيرهم من الأمم. إلا أن هذه الحضارة تميزت بهضم هذا التراث وأضافت إليه الكثير، فما من أمة تستطيع استيعاب التراث العلمي لغيرها من الأمم التي تفوقها حضارة إلا إذا كانت قد وصلت إلى هذا المستوى من التراث.. وقد كانت الأمة الإسلامية جديرة بذلك في وقت قصير، ذلك لأن مظلة العلوم الفقهية وعلوم القرآن والسنة قد أمدتها بإشعاعات أسرعت في تكوين الفيتامينات للفكر العلمي الجديد..[2]

أما عن الفرية القائلة بأن الحضارة الإسلامية ظهرت على أيدي غير العرب، فنقول مجيبين لهم: إن الإسلام لا يفرق بين جنس وآخر، ما دام الجميع قد دخل تحت مظلته، والحضارة الإسلامية قد اشترك في تكوينها المسلمون من جميع الأجناس، وكان للأمم الأعجمية- حقاً- قسط كبير في بناء صرحها في مختلف العلوم والدراسات[3]، إلا أنه ينبغي أن يُعلم أن هذه الأمم الأعجمية لم تنهض هذه النهضة إلا بعد ظهور الإسلام فيها، ولم تكن لها في إبان مجدها القديم فضيلة على العنصر العربي في الدراسات النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة..

ومن الثابت أنه ليس كل ما انتقل على أيدي الحضارة الإسلامية عربياً محضاً، في الأصول والفروع، ولكن حسبها أنه لم ينقطع على أيديها، فاتصلت بفضلها وشائجه بالتاريخ القديم والحديث،

---

(1) أثر العرب في الحضارة الأوربية، عباس محمود العقاد، ص 28، 29، بتصرف، ط2- دار المعارف 1963م.

(2) مسيرة الفكر العلمي، د.الدمرداش، مجلة "المنهل" عدد رجب 1407هـ (الحلقة الثالثة) ص 138.

(3) دولة العلماء إلى أين؟ د.محمد السيد علي بلاسي، جريدة "أخبار العالم الإسلامي"، العدد 956، ص 12 فراجعه تجد تفصيلاً.

فحفظت تراث الإنسانية كلها وزادت عليه ونقلته إلى من تلاها. وكل حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خير ما يطلب من الحضارات[1]. كما أن ابتكارات الحضارة الإسلامية في شتى مجالات المعرفة- مما لا يتطرق الشك إليه- دليل على أن حضارة الإسلام مبدعة وليست ناقلة- فحسب- كما يزعم المغرضون الحاقدون!

ومضات من ابتكارات المسلمين:[2]

أولاً: في الرياضيات:

أ-الجبر: اخترعه العرب اختراعاً، ونقلته أوربا باسمه، والخوارزمي هو أول من ألف فيه بطريقة منظمة، واعتمدت أوربا على كتابه "الجبر والمقابلة".

ب-الحساب: ابتكر العرب النظام العشري، والصفر نقلته أوربا باسمه العربي. ووضع العرب مؤلفات كثيرة في الحساب والنسب العددية والهندسية والتناسب واستخراج المجهول والجذور.

جـ-المثلثات والفلك: وهم واضعو علم حساب المثلثات وسهلوا حل كثير من المسائل، وربطوا بين الفلك والرياضة، ونبغ في ذلك: الطوسي، والبيروني والخازن...

د-الطبيعة والميكانيكا: عالج ابن سينا سرعة الضوء والصوت، ويعتبر ابن الهيثم في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور وهو من أئمة علم الضوء..

ثانياً: الكيمياء:

بطلها جابر بن حيان، فقد عرف عمليات التبخير والتقطير والترشيح والتكليس والتبلور، وحضر كثيراً من المواد الكيمائية مثل نترات الفضة وكبريتور الزئبق، وقد ترجمت كتبه إلى اللاتينية. واشتهر الرازي بالطب والكيمياء، وقد ابتكر أجهزة ووصف أخرى، وكان لمعرفته بالكيمياء أثر في طبه، وقد حضر الكحول وبعض الأحماض كحامض الكبريتيك..

ثالثاً: الطب:

لقد عرف العرب المستشفيات، وعنوا بالطب عناية فائقة. ويحدثنا التاريخ: أنه قد دعي إلى الامتحان في بغداد نحو تسعمائة طبيب على عهد المقتدر بالله، وهم غير الأساتذة الثقات الذين تجاوزوا مرتبة الامتحان، وهي عناية بالطب والصحة لم تشهدها قط حاضرة من حواضر التاريخ القديم. هذا في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية في أوربا تحرّم مزاولة الطب، لأن المرض- في زعمهم- عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه. وظل الطب محجوراً عليه بهذه الحجة إلى ما بعد انقضاء العهد المسمى بعد الإيمان، أي منذ استهلّ القرن الثاني عشر للميلاد،

---

[1] أثر العرب في الحضارة الأوربية، العقاد، ص 30-33- بتصرف-، ط2 دار المعارف سنة 1963م.

[2] لمزيد من التفصيل راجع: المرجع السابق ص 34-129. وتاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية: د.صبحي منصور، ص 88-105.

وهو إبان الحضارة الأندلسية..

وكانت مؤلفات العرب في الطب هي عمدة المؤلفات التي اعتمدت عليها أوربا ولا زالت في مجال الطب كمؤلفات ابن سينا والرازي وابن الهيثم وغيرهم...

فهذا قبس من ابتكارات المسلمين في بعض العلوم، وهناك ابتكارات أخرى- في شتى مجالات العلوم- لا يكفي لحصرها مجلدات ومجلدات، تلك التي بنت عليها أوربا حاضرها بعد سباتها العميق..!

ولعل هذا كله يلغي تلك الفريّة القائلة: بأن حضارة الإسلام كانت حضارة ناقلة وليست مبدعة.

ولا يسعني أخيراً- إلا أن أسوق قول المستشرقة الألمانية المنصفة "زيغريد هونكه": "وإننا لندين- والتاريخ شاهد على ذلك- في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زيّنت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يوماً من الأيام قاتماً كالحاً باهتاً، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، وطيبته بالعبير العابق، وأحياناً باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة..."[1].

□

المصادر والمراجع:

1 ـ تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية ـ أحمد صبحي منصور ـ كتاب جامعي ـ في الأزهر الشريف.

2 ـ مسيرة الفكر العلمي عبر التاريخ، أحمد سعيد الدمرداش، مجلة المنهل العدد (450) ـ والعدد (407) ص (138).

3 ـ تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية ـ أحمد صبحي منصور ـ المقدمة (أ.ب). وص (88 ـ 105).

4 ـ صفوة التفسير من أعلام المفسرين ـ محمد علي الصابوني ص (581) ـ دار الرشيد ـ سورية.

5 ـ دعوة الإسلام إلى العلم ـ د.أحمد عبد الرحيم السايح ـ مجلة المنهل ـ العدد (453) ص (18 ـ 19).

6 ـ كيف يحضّ الإسلام على طلب العلم ـ لطفي نصر ـ مجلة الهداية العدد (113) ص (38 ـ 41).

7 ـ تفسير المراغي ـ ج (11) ص (48).

8 ـ الإسلام بين العلم والمعرفة ـ عبد الرحمن بهلول ـ مجلة منبر الإسلام ـ رجب (1407 هـ) ص (75).

9 ـ مجلة البريد الإسلامي ـ محمد السيد علي بلاسي ـ العدد (7 ـ 9) (1404 هـ) ص (13 ـ 14).

10 ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية ـ عباس محمود العقاد ـ دار المعارف (1963) ص (28 ـ 29 ـ 30 ـ 33).

11 ـ أخبار العالم الإسلامي ـ محمد السيد علي بلاسي ـ دولة العالم إلى أين ـ العدد (956) ص (12).

12 ـ شمس العرب تسطع على أوربا ـ زيغريد هونكة (ط 6) (1401 هـ) ـ (ص20).

□□□

---

[1] *زيغريد هونكه: شمس الدنيا تسطع على أوربا، ترجمة: فاروق بيضون، وكمال الدسوقي، ص 20، ط6 سنة 1401هـ، منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت.*